هوية

العدد
10

ثقافية -فكرية -فصلية

السنة التاسعة - العدد العاشر -حزيران-2025

تصدر عن:
مركز الجنوب للدراسات والتخطيط الستراتيجي
النـاصرية - العـراق

رئيس التحرير
صلاح حسن الموسوي

هيئة التحرير
حيدر عودة
أمير دوشي

المسؤول الإعلامي
عقيل الأزرقي

الاشراف اللغوي
د. علي حسن مزبان

الاشراف الفني
حيدر عودة

لوحة الغلاف والأعمال الداخلية
للفنان مصطفى الحلاج

الآراء والأفكار الواردة في المقالات والكتابات المنشورة
لا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة، وتَحفِظ المجلة حق الرد.

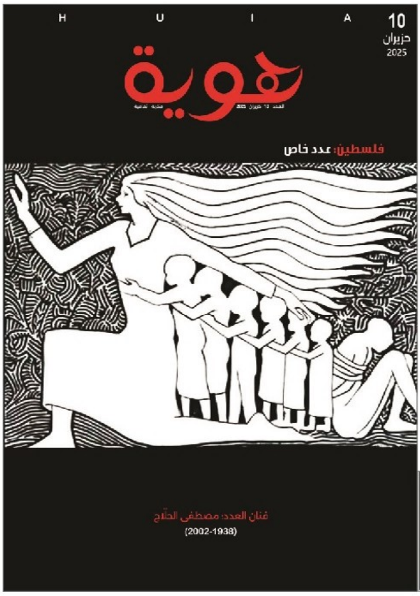

الغلاف الأول

مجلة هوية
العدد العاشر -حزيران
2025

الغلاف الأخير

محمود درويش في دائرة الفعل الوجودي

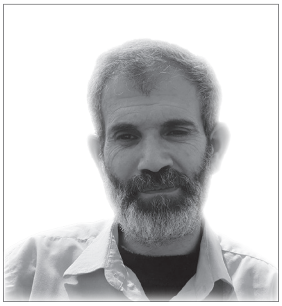

فراس حج محمد
كاتب وشاعر/ فلسطين

لا شكّ في أنّ السؤال الفلسفيّ مقترن بسؤال الوجود، والشعر لا ينفكّ يبحث في هذا الوجود عمّا يقلق الأفكار ويجعلها دائما في اضطراب، هذا الاضطراب الحيويّ هو الذي يُنشئ الحركة الإنسانية، بحثاً عن مبرّر الوجود، ولذلك عند التدقيق في لغة الشاعر- أيّ شاعر- سيجد الدارس هذا الخيط الناظم ما بين الفلسفة والشعر والمجدول على شكل نصّ شعريّ، يدفع المتلقي دفعاً لطيفاً ليرى ما قد يُرى. ولأنّ اللغة هي حاملة لمعاني كثيرة، تاريخية وفكرية وعقدية فهي مخزن مكثف عميق في الدلالة على التجربة الذاتية للشاعر أو التجربة الإنسانية بشكل عام.

هذه القناعة تدفع المرء ليقرر أن للكلمات ذاكرة وليس أمرا مستغرباً أن يتكئ الباحث داود إبراهيم على هذا المعنى وهو يعدّ كتابه "ذاكرة الكلمات" (رام الله، ٢٠٠٨)، ويجمع فيه مجموعة من قصائد الشعراء.

هذا الحكم بالاختزان المعرفي الفلسفي يكاد ينطبق انطباقا تاماً على بعض النصوص التي أثقلت كلماتها المتلقي بما تختزنه من حمولة وتاريخ حتى خارج حدود الشعر والأدب فما بالكم باللغة الشعرية المنتقاة

كلغة درويش في الجدارية، فلا تكاد كلمة تسلم من أن تحيل إلى نصّ أو مقولة أو موقف أو فلسفة، هذا جعل النص كأنه قطعة فسيفساء لغوي مشغولة بمهارة صانع، لا بموهبة كاتب فقط. كما تجعل النص عصيّا على القارئ العادي، ولا أدري هل يعد ذلك في ميزان حسنات النص أم في ميزان سيئاته؟

يبدو أن لغة الشاعر محمود درويش في "الجدارية" كانت ذات لغة فسيفسائية منقولة من مصادر متعددة، بحيث يشكّل النص ظاهرة لغوية في التناص لكثرة اتكائه على اللغة المجلوبة من الأساطير والكتب السماوية والأشعار وأقوال الفلاسفة والمفكرين، عدا مقدرة درويش على "هضم" نصوص كثيرة ليشكل نصه على الصورة التي بدا عليها؛ مكوّناً من عناصر متباعدة في الزمان وفي المكان ومن ثقافات شتى، حتى بدا كأنه نص مهجّن، لكنّ التآلف بين تلك المكوّنات جعلت منه نصّاً ذا ذائقة خاصة، بعد أن جرت كلها في نهر الصناعة الشعرية في مختبر درويش.

إن آحاد المفردات شكلت ملمحا مهما في الإحالات لنص سابق أو فترة زمنية سابقة أو فكرة فلسفية، أو حادثة تاريخية؛ فكلمات من مثل: الأندلس، والأسطورة، وأنكيدو، وجلجامش، والإنجيل، والمسيح، والصليب، وهوميرو، ومجنون ليلى، والأطلال، والمعلقة، وغيرها الكثير فإنها بالضرورة تحيل إلى ذاكرة تاريخية وثقافية ارتبطت بها هذه المفردات، فدرويش لا يستخدم هذه الألفاظ من أجل المعنى الذاتي للمفردة، بل لما يتعلق بهذه المفردات من تاريخ وثقافة. بل إن هذه المفردات لا يمكن لها إلا أن تستثير في المتلقي تاريخها المختزن فيها، فصارت أشبه بأيقونات ثابتة الدلالة على المعنى الشعري المراد، وتطورت القدرة الترميزية فيها إلى دلالة مستقرة بعيدا عن المجاز، لأنها استقرت في الوعي الثقافي واللغوي لمعانيها التاريخية الخاصة، أكثر من المعنى اللغوي المعجمي العام.

وقع درويش في فخّ اللغة أكثر من وقوعه في فخ الموضوع، مع أنه يحيل إلى موضوع "رثاء النفس" المعروف لدى الشعراء، ومنهم شعراء العربية، هذا الإحساس بمأزق اللغة أنطقه فقال: "يضيق الشّكل. يتّسع الكلام. أفيض عن حاجات مفردتي". (ص ٢٣)

ويعود الشاعر مرة أخرى إلى مأزق اللغة التي لم تتخلص من آثار كلام السابقين: "كلّما يمّمْت وجهي

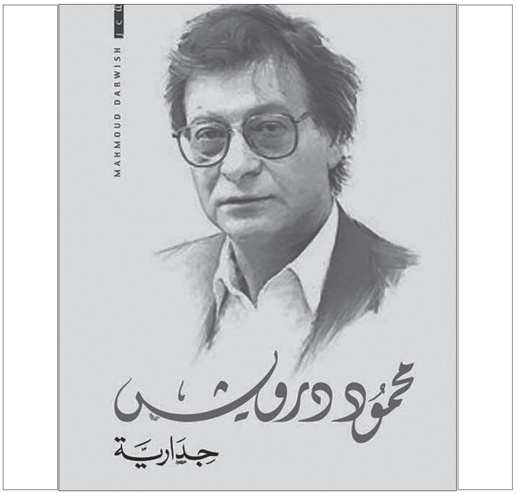

الأغنيات رأيت آثار القطاة على/ الكلام". (ص ٧٩) لقد رأى درويش أشياء كثيرة جعلته يفيض فيضاً لا تتسع له المفردات، فثمة حاجات (بالجمع) للمفردة الواحدة، جعله فعلاً يرى آثار القطاة على الكلام. فهل شعر درويش بعجز في اللغة، وأنها لن تستطيع حمل كل تلك الرؤى التي أثقلته في رحلة "الأبدية البيضاء"؟

تسكن في جمل درويش الشعرية هذه ظلال من عبارة النفّري المشهورة "كلما اتّسعت الرؤية ضاقت العبارة"، (المواقف والمخاطبات، ص ٥١)، فكلاهما؛ الصوفي الذي يرى من وراء حجاب فانفتحت له عوالم الغيب، والشاعر الذاهب نحو تخوم الموت، هذا العالم المجهول رأيا ما يهول، وما يجعل الكلام المتسع رغبة في التعبير عنه، ضيّقاً على الشكل/ العبارة التي تجسّده وتستوعبه عن آخره كما يريد.

على ما يبدو أن حالة من الذهول أثقلت الشاعر وأتعبته، فانعكس كل ذلك على تركيبة النصّ ولغته. وأن درويش أدرك أن المعنى أكبر من اللفظ، ولا تستطيع الألفاظ الإحاطة بالمعاني، على قاعدة أخرى قرينة بقاعدة النفّري تقول: "إن الكتابة ناقصة" مهما بلغت من شرح وتوضيح وبلاغة، ولم يكتفِ بالمجاز فذهب إلى أن يقرر أن "لغتي مجاز للمجاز." (ص ١٣)

فمن أين أتت حالة الذهول هذه في النص الشعري؟

عاش درويش في هذا النصّ مرحلة البرزخ المعروفة لدى علماء العقيدة المسلمين، وتعرّف لديهم بأنها المرحلة الواقعة ما بين انتهاء العمر في الدنيا وبين الانتقال إلى الآخرة؛ أي أنها مرحلة القبر، واتصل بهذه المرحلة الكثير من النصوص الدينية في سؤال الملكين والعذاب والنعيم، كلٌّ على حسب دينه وتقواه. وبعد مقدمة قصيرة ودخوله في "الأبدية البيضاء" كما يسميها، ينفي أهم مقولات حياة البرزخ وأولها، كما جاءت في الأحاديث الشريفة، فصرّح قائلاً: "فلم يظهر ملاك واحد ليقول لي:/ "ماذا فعلت هناك في الدنيا؟"/ ولم أسمع هتاف الطيبين، ولا/ أنين الخاطئين، أنا وحيد في البياض،/ أنا وحيد." (ص ١٠)

هو وحيد، كمالك بن الريب الشاعر الذي رثى نفسه، بعدما صار وحيدا أيضا؛ "رهينة أحجار وترب تَضَمَّنَت قَرارَتُها مِنّي العِظامَ البَوالِيا" (الديوان، ص ٩٥)، وهذا- عموما- إحساس كل من رثى نفسه من الشعراء، فالوحدة قاسم مشترك أكبر توحدت عليه قصائد هؤلاء المقبلين على الموت وهم يعلمون علم اليقين أنه لا رجعة مرة أخرى إلى الحياة. ومن الملاحظ أن هذا المعنى (الوحدة) تكرر عند ابن الريب في أبيات أخرى، لأنه يتحسر ولا يريد أن يموت، بل إنه يريد الحياة كما قال درويش مرتين: "وأريدُ أن أحيا...". (ص ٤٨) وكذلك: "وأنا أريدُ، أريدُ أن أحيا...". (ص ٥٥)

واستطرادا في هذه المسألة، فإن النص الدرويشي لا يصحّ أن يؤخذ دليل إدانة على أية فكرة عقدية، إنما هو كتب ما رأى، أو تصوّر أو توهّم، فالعائدون من الموت كلهم يتشابهون في هذا التصور، وما قد يرون أو يتخيلون أنهم قد رأوا، في هذه المنطقة الموصوفة عند درويش بأنها "لا عدم هنا في اللا هنا... في اللا زمان، ولا وجود". (ص ١١) جاء في تقرير نشرته الجزيرة نت تعليقا على هذه الظاهرة "الموت الوشيك" وتجارب العائدين منه: "ورغم أن ما يرويه "العائدون من الموت" تختلف بعض تفاصيله وتلويناته، فإن الكثير من عناصر هذا السيناريو تتكرر إما جزئيا أو كلياً". (الجزيرة نت، تاريخ: ٢٠٢٠/٦/٢٠ :https://2u.pw/M3nCydph).

لم يسلم درويش من التوجه الوجوديّ، فقد التفت إلى الوجوديين؛ منقادا لهم ومعجبا بهم في النصّ، "يغريني الوجوديون كل هنيهة، حرية وعدالة" (ص ٤٩)، هذا التوجه قائم على الإيمان بالمرئيّ المدرك، المحسوس، وكل ما عدا ذلك غير موجود، فالنص في جزء منه- إن لم يكن في أساسه- مبنيّ على الفكرة الأساسية للوجودية، فما هو خارج هذا الوجود مما ليس عليه دليل لا يؤمن فيه الوجوديون، ودرويش واحد من هؤلاء على الأقلّ في هذا النص، فما نفى وجوده عن

حياة البرزخ يؤكده في هذه الجملة: "لم يعد أحد من الموتى ليخبرنا الحقيقة". (ص ٤٨)

فهل بناء على الفكرة الوجودية التي تنفي وجود ما وراء الواقع يؤكّد درويش حقيقة حياة البرزخ كما عاشها أم أنه ينفيها، فيكون ما مرّ به مجرّد توهم ذهنيّ لا واقع له ولا حقيقة، فهو لم يمت على أيّة حال إنما زار عالم الموتى؟ فهل هذه حقيقتهم التي لم يخبر بها أحد لأنه لا أحد عاد من الموت؟ ولعله لم يزر هذا العالم، إنما لم يكن أكثر من هذيان تحت سيطرة المخدر: "تقول ممرّضتي:/ كنْت تهذي طويلا، وتسألني:/ هل الموت ما تفعلين بي الآن/ أم هو موْت اللغةْ؟" (ص ٦٧)

هذا الهذيان الذي تكرر فعله المضارع ثلاث مرات والشاعر في هذا الظرف الصحي والنفسي الرهيب. فكأن ما قاله لا يعدو كونه تعبيرا عن الخوف الطبيعي للإنسان من القدوم على مجهول لا يعلم حقيقته. وعلى أية حال، فإن العبارة الدرويشية مراوغة ومفتوحة على المعنيين كليهما، وإن كانت مستقاة من الموقف الشعبي تجاه الموت، وكنت أسمع ذلك من بعض كبار السنّ في قريتنا، بعيدا عن التصديق أو التكذيب بما يحدث من حياة بعد الموت، إنما هو موقف تجاه ما لا يقع عليه الحسّ، فيظل مجالا للشك، ولا يسلم منه إلا كل ذي حظّ عظيم من اليقين والعلم. فكأن هذا الشك يمثّل من جهة أخرى ذلك الإحساس الفطري الشعبي تجاه قضايا الميتافيزيقيا المعقدّة التي لم تفلح "مفردات الواقع" بالإجابة عن أسئلته.

لم يخترع درويش المعنى، كما أنه لم يخترع اللفظ، إنما هو معبّر عن محنته ومحنة غيره، فقد ورد هذا المعنى ذاته في شعر أبي الطيب المتنبي في قوله: "فالموتُ تُعْرَفُ بالصِّفاتِ طِباعُهُ، لَم تَلْقَ خَلْقاً ذاقَ مَوْتاً آيبا". (الديوان، شرح البرقوقي، ج١، ص ٢٠٠) وقد علّق الشارح على البيت يقوله: "إن الموت يعرف بالوصف لا بالتجربة، إذ لم نجد مخلوقاً مات ثم رجع فيخبرنا عن حقيقة الموت". وتكاد جملة درويش الشعرية تتطابق مع جملة الشارح؛ إمعاناً من درويش للذهاب أبعد من المعنى المصوغ شعرياً في بيت المتنبي، ولعله أيضا يريد أن يخلّص المعنى من سياق المدح، فيجعله عاماً، بحكمة عامة، تناسب الحالة التي عليها درويش وآخرون وقعوا في التجربة ذاتها.

واستعار درويش من الوجودية الفعلين "كان" و"وجد"،

عمل طباعة للفنان مصطفى الحلاج

فقد بدت مخايل من فلسفة بول سارتر في "الجدارية"، إذ يتجاور الفعلان في النص في قوله: "اكتب تكن واقرأ تجد" (ص ٢٥)، ومن خلال التوظيف السياقي للفعلين فإن درويش يفرّق كما يفرق سارتر بين مرحلة الكينونة ومرحلة الوجود، يقول سارتر: "إن الإنسان يُوجَد أولا، ثمّ يتعرّف إلى نفسه، ويحتكّ بالعالم الخارجي، فتكون له صفاته" (الوجودية مذهب إنساني، ص ١٤). فالفعل يكون فيه استمرار دائم، وهو ما يناظر فعل الخلود والاستمرار بعد أن وجد، وبناء على هذا التفسير فإن الكتابة لها معنى وجوديّ في النص، وليس مجرد فعل بشري للتعبير عن الأفكار والمشاعر.

هذا المعنى السارتريّ سيطر على درويش في "الجدارية" وعبّر عنه تعبيراً آخر عندما كرر جملة "سأصير يوما ما أريد" أربع مرات، والفعل سأصير في سياقات متعددة ثماني مرات، منها هذه الأربع، وكرر الفعل "أكون" خمس مرات. والفعل أريد خمس عشرة مرة، هذا التكرار لهذه الأفعال وجودية الطابع هو رجع لوجودية سارتر كما شرحها بنفسه: "إن الإنسان يوجد، ثم يريد أن يكون، ويكون ما يريد أن يكونه بعد القفزة التي يقفزها إلى الوجود" (سارتر، ص ١٤) ومن الملاحظ أن درويش تأسره العبارة السارترية والأفعال السارترية ليكررها كما جاءت على لسانه وفي كتابته، ولذلك لا يصحّ أيضا أن يُنظر إلى هذه الأفعال مجردة عن الحمولة الفلسفية التي تحيل إلى هذا التناص مع أبي الوجودية المعاصرة جان بول سارتر.

وخلاصة لما سبق أستطيع أن أقرر ما يأتي:

إن نصّ الجدارية نص فلسفيّ وجودي الطابع يناقش

مسألة الحياة بطرح سؤال الموت، وما يحمله السؤلان من معنى الجدوى، وقد امتدّ هذا القلق النفسي وتمدد في ألفاظ الشاعر ومعانيه التي غدت ذات مرجعيات متنوعة مختزنة في تلك الألفاظ وذاكرتها؛ أسماءً وأفعالاً شكلت المعنى في هذا النص، فكأنه مشغول بحرفية صانع، أعاد تركيب اللغات وألفاظها، ليصنع منها نصّه ليعبّر عن تجربته الخاصة في الذهاب نحو الموت، لكنّ الحياة أيضا حاضرة وبقوة، فهما المعنيان اللذان يتنازعان الشاعر الذي أوقعه المخدّر في هذه البقعة من الوقت أكثر من وقوعه في بؤرة المكان، ليدخل في حالة أكبر من حلم. يقول على لسان ممرضته الفرنسية: "كن هادئاً/ وجديرا بما سوف تحلُم/ عمّا قليل...". (ص٢٩)

مراجع هذه الدراسة:

* ابراهيم، داود، ذاكرة الكلمات- روائع الشعر المعاصر، مؤسسة اليرموك للثقافة والاعلام، رام الله، ٢٠٠٨.
* ابن الريب، مالك، الديوان، تحقيق: نوري حمودي القيسي، (مستلّ من مجلة معهد المخطوطات العربية، مج ١٥، ج ١) ، د. م، د. ت.
* درويش، محمود، الجدارية، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، ٢٠٠٠.
* سارتر، جان بول، الوجودية، ترجمة: عبد المنعم الحفني، د. م، ١٩٦٤.
* المتنبي، أبي الطيب، الديوان، شرح عبد الرحمن البرقوقي، شركة دار الأرقم بن ابي الأرقم، بيروت، د. ت.
* محمد بن عبد الجبار بن الحسن، النفري، المواقف والمخاطبات، مكتبة المتنبي، القاهرة، د. ت.
* الجزيرة نت، ماذا يحدث بعد الموت؟... "العائدون" منه يسردون تجربتهم والأطباء لا يملكون الجواب، تاريخ: ٢٠٢٠/٦/٢٠: https://aja.me/skps٥.